جرح في شمس هادئة

قصة بقلم موسى كريدي

فرقع الصوت في الفضاء الرمادي ، فاهتزت عربات النقل المتطامنة قرب مقهى قديم ، وبدا الشارع المجاور طفلا أحدب . وكان رواد المقاهي في خدر . والشمس بلون الرصاص . وكانت أشعتها تسقط خلال هياكل بشرية يتداخل عبر أنفاسها ضباب خفيف ، وكانت الجماجم في الضوء تبدو سوداء ، وتبدو كأنها فقدت بريقها في ذلك المكان ، وراحت تتحرك ، وتتموج في فراغ قائم خلفها ، في الخارج ، تماما . على حين دوى صوت نقالة الاسعاف ، فاتجهت الرؤوس كلها نحو المؤخرة ، وانشق الناس نصفين . انفتح الباب ، وسرعان ما أغلق. وارتفع الصوت ثانية مثيرا وصاعقا . واذ تفرقت جموع الناس ، شوهدت ، هنا وهنالك ، بقع دم ، وسمعت أصوات أخرى غامضة ، ولم يعرف أحد ماذا حدث في اللحظة بالضبط .

في ركن قصي جلس يوسف تاركا أصابعه تنقر برتابة حافة الطاولة أمامه ، والمقهى يضج . شرب شايا ، ارتد للوراء ، نظر الى ظله الواني ، نهض .. وقبل هذا بلحظات ، ظل برهة ينزف في الوجوه التي تمر مسرعة ، لاهثة ، وحط في عينيه فجأة ، وجه ممتلىء ، حاد.. كان الوجه الغائب حاضرا على الجدار يومىء للعاصفة أن تمر .. وكان يومىء في عينيه ، وجه غاضب ، أسمر ، عميق التقاطيع ، عميق العينين ، بينما يظل وجهه هو جامدا في الشمس ، وغاربا في قوس الذهول الذي لم يبرح ذهنه فيما كان الصباح يستدير في عينيه بندقية مشرعة خاصمت زنده فترة ، واستقرت ، وقبل أن يفكر في انتظار شيء ما يأتيه في اللحظة ألفى نفسه محشورا في الداخل .

تدحرجت السيارة به في الضوء الاسود ، وكان صامتا غير أنه سمع بعد لحظات دقائق الرمل وهي تضرب مقدمها ، وتتناثر ناعمة فوق الزجاج ، فلم يعر السائق أدنى اهتمام لذلك ، وكان السواق عادة يخففون من السرعة في هذه الحالة ، ويسمعون ركابهم بعضا من كلمات مبهمة ، وحين توقف محرك السيارة ارتسمت الدهشة في الوجوه ، والتفت الركاب جميعا ، وصوبوا نظراتهم باتجاه الوجه ، المغضن ، المكسو بالشعر الابيض .

– لماذا توقفنا ؟

– لم نتوقف .

ومن طرف عينيه كان يوسف يرمق وجه السائق ويستعيد في الوقت ذاته بعضا من ذكريات قديمة . وكانت ثمة غيوم ترتفع بيضاء ، فوقهم ، فلم يصدر من السائق أي شيء .. بل لم تتحرك شفتاه غير انهم سمعوه يردد :

– ها .. ها .. ها .

وأطلق جندي جالس في المقدمة ضحكة خالها الركاب قنبلة تنفجر في معسكر مليء بالقتلى

فقال السائق للجندي :

أنت على حق .

فقال الجندي بتثاقل :

انني أضحك .

فقال السائق :

كما تراني .

فقال الجندي وهو يرفع حاجبيه الى أعلى :

– ولكن لماذا تسوق اذن ؟

انغلق وجه السائق ، وسقط في الصمت أسيرا ، وأحس بصدره ينز ويتقبض ، وبعد بضع لحظات سمعوا هاتفا يهتف :

– ها نحن وصلنا .

وصلنا ... والسياقة كالموت ، والموت افعى مختبئة تدحرج خطاه فوق مفارز البلد المغمور بالثلج ، قبل أشهر ، نهض وحده ، في غرفته . أشعل الضوء ، تحسست راحتاه حبات الثلج التي ذابت عند قدميه . في فراشه ذابت أيضا وبسرعة . وحين تخطى عتبة الباب ، رأى وجه السماء ، رآه يشع ببريق ، وحشي نفاذ ، كان يمر فوق الليل ، وفوق جبهته يمر منحنيا وخاطفا كموجات هاربة .

– وصلنا ...

صمت أبيض كالثلج .. نزل الركاب واحدا بعد الآخر . نزل يوسف . وفي هذه الأثناء اختمرت في ذات يوسف فكرة آنية قادته لان يستوقف السائق ، فقد أحس بميل نحوه ، فطري ، وأحس – وهو يقترب – أن أمرا ما يختفي داخل هاتين العينين ، العميقتين ، وبلا مقدمات سأله :

– هل رأيت القتيل ؟

فقال السائق وعيناه في الارض :

– لم أره .

فقال يوسف :

– ولكنه مر من هنا .. كان محمولا .

– نعم . كان محمولا .. وقد مر من هنا ولكنني لم أره .

وتساءل بدهشة :

– هل رآه الناس ؟

فقال السائق :

– على الاكثر .

فقال يوسف بقوة :

– هل غضبوا ؟

وتحير السائق ، وتضاءل ألق كان يشع في عينيه ، ثم سأل :

– ماذا تعني ؟

– أعني هل كانوا غاضبين ؟

فهم السائق ، وسكت ، وبدا رجلا متعبا ، فنظر يوسف الى عينيه نظرة مسالمة ، فيها حنو كبير ، ركز في وجهه فأثارت نظرات الرجل الغامضة في نفسه حسا خفيا ، وتمثلت أمامه فجأة صورة مريرة جعلته يتساءل بألم : لماذا هو ميال للعزلة والهدوء ؟ هل يصدق ظني ؟ أنا على العكس تماما . أنا لا أحب العزلة . أنا أحب الناس جميعا . أحب أن أراهم دائما – قال هذا وصدقته ، ولو لم يكن كذلك لانغلق وجهه في وجهي على الاقل ، وصرنا حجرين في غابة .

نظر السائق الى يديه وهما مطبقتان على بعضهما ، وقال :

أعتقد ...

وتهدج صوته وأكمل

– اننا سنفترق بعد بضع دقائق .

وبدا خلال ذلك مفكرا في شيء ما لم يستطع أن يفصح عنه ، ولم يقل شيئا ، غير ان يوسف فضل أن يستمر في كلامه مستعيرا

لهجة محقق مستجد ، محاولا في الوقت ذاته ألا يبدو طارئا أمـــام صاحبه ، أو متطفلا ، وقد حاول أيضا أن يخفي بعض توتره ، ورغم هذا فقد ظل يسأل :

ـ قلت لي انك تعيش وحدك ؟

هز السائق رأسه ..

ـ وغير متزوج ؟

ـ طبعا .. طبعا .

غامت عيناه ، ولم يبق له غير أن يتذكر .. الاصبع التـــي تضغط ، والرصاص الذي يتجدد في الدم ، والدم الذي يهل كالمطر ، فيما يشخص كأقوى ما يكون ، فاصل الموت ، وهنا رأى خيـــاله .. في مرايا الرمل ، والثلج : رآه ... وامتدت يداي في الفـــراغ تضربانه ، وسقطتا على الارض ناحلتين ، وكان جسدي يصعد كالرصاص ويظل متفجرا ، دونما حاجز ، دونما فاصل . مرة عثرت على هـــذا الجدار ، جسدي ، ضبطته ، كان مهادنا . ضربته . حركته . تحرك . ولم تتوقف ذراعاي ، ولا كفت حنجرتي عن الصراخ ، وكان ثمـــة حراس ، أعرفهم ، كانوا يتقون بأصابع مبتورة ، انهيارات الفـــراغ المتسارعة ، المتلاحقة ، رغما عنهم . لقد ظلت تسقط قربي فتـــرة قصيرة ، كنت أسمعها ، وكان جسدي يومذاك ، ينفجر ، ويصـــل ، وظننته سيفرقع كرصاصة وينتهي كل شيء ولن يبقى أي اثـر لايمـا خيـــال .

كنت أرى كل هذا .. وكان الاهل في فوهة السلاح . كـــانوا جميعا . وفي الحدث كنت .. كنت السائق الذي يعرف اقرب نقطـة لمنعطف الموت ، كنت يقظا كالموت نفسه ، وكان بي حنين اليـــه .. وتسألني أنت وقبلك سألوني لماذا الموت بالذات ؟ ولماذا الحنين اليه ؟ لم أقل لك ، ولم أقل لهم شيئا ، فالصمت عـــاد ثانية وعرش .. والكلمات .. كل الكلمات لم تعد غير زنابق حمر مضطهدة ، كنت احسها في ذاتي . كانت نفر وأفر أنا معها ، وما عدت أصحبها ، وما عـادت تنزلج على شفتي ، فالرصاص الآن يحل مكانها ، ويضيء .

أموت .. هه .. هل فـــي ذلك غرابة ؟ لقد مت . أجل مت بالفعل ، وماتت معي مدن ، وأشجار ، وناس كثيرون . متنا جميعا . صدقني متنا مرتين موتا بطيئا . هذا أمر ـ فيما أعتقد ـ واضـــح ومفهوم . أنت ربما تعرفه أكثر مني . وهذا يعني اني سأموت أيضا . في المرة الثالثة . قل في المرة الاخيرة سيكون موتي أكيدا ومريحا على الاقل ، وهذا يكفي بالنسبة لي . سأكون اذن بانتظار الطـــائر .. طائر الموت ، سيحوم حول رأسي وفتـــرة يظل الجسد ـ جسدي ـ هادئا تحت جناحه ، تحت جناحه الفضي المصفق بقوة . سأدعوه الـى مملكتي ، في فضاء الجسد ، جسدي الذي ما زال في انتظـــاره . هنالك فيما وراء الجبل أسمع صوتا ، بل أصواتا وحشية تصاعد من خلف . والرصاص يبلغ الآذان سريعا ورهيبا . يخمد فترة ما يلبـــث بعدها حتى يستمر موقظا حصى الساحل ، والوجوه التي عـــلى الســـاحل ...

سكت الرجل . ويوسف ينحنى جانبا . يبتعد . والشمس مـــا تزال ترتفق رؤوس المداخن . تباعد الرجلان . تباعدت خطاهما . تحرك سائق السيارة نحو جهة معينة ، وتحركت رجلا يوسف نحو الجهـــة الاخرى ، وتوقفت سيارة سوداء ضخمة قرب معسكر للتدريب .

في المعسكر ، فكر في الرجل . وكان رأس السائق يبين خلـل الغبار ، وضوء الشمس الواهن حجرا في غابة . وكانت الاصـــداء ، اصداء الشارع ، والمقهى البعيد ، والحارة الصاخبة ، المغتربة خلف الرأس تلاحق رأسه الضاج ، وتصفعه صفعا لينا رتيبا ، ورغم غيـاب وجهه ، وغياب وجه الاشياء ، رغم ذوبانها ظلت تقدح في داخـــله ، وتسيل كالزئبق ، ورغم ذلك أيضا ظلت محتفظة بقوتها ، وضغطهـــا الهائل الدوار ، ظلت ممكنة وهادئة ، غير انها ما برحت ترغم صاحبها على السكون والانكفاء .

انهى التدريب . ولكن الدور لم ينته بعد . دور مـــن ؟ دوره أم دور الرجل الذي لم يزل دائرا في رأسه كالشمس ، ونابتا كقرنفلة . وهدأ بعض الشيء . تنفس بعمق والبندقية كالرجل لم تهجر مخيلته بل ظلت ترتفع ببطء وتهبط فيما ظل وجه الرجـــل صاعدا ، نازلا ، حول الكتفين ، وأينما أدار رأسه رآه . وظل يلتف ، ويتجه باتجاهه ، ويستدير حوله استدارة غريبة لم يستطع أن يفلت ولم يكن ليفكـــر في الافلات من قوة تسلط الصورة ، الماثلة أمامه . كان يسمعـــه ، يسمع تنفسه البطيء . وكان يرى حلم الرجل . ماذا رأى ؟ وكيف استطاع أن يحضر الدائرة الخفية ؟ لم يكن قد رأى فيما رأى بحرا ، وأشرعه تعود . ولكنه رأى رصاصا يزف داخل الجمجمة . وكـــان الرصاص يثقب سماء الحلم . تلك السماء الغامضة أدركها فـــي لحظات .

في الظهيرة ، كان بيته صامتا . وفي الصمت كانت بركة مـاء ساكنة لم يكن ليسمع فيها أي شيء . ولم ير غير انعكاس الزرقـــة وهي تتحدر من فوق لتغمر وجه السطح ، ولا شيء غير هذا .

نظر فيما حوله فلم يلحظ شيئا يمكن أن يجعله مطمئنا ، ففضل أن يخرج لئلا يختنق قرب بركة الماء . كانت الشمس على غير عادتها ، وكان النهار اثرها يخف ثقله ، ويتقاصر ، كان لآخر لحظة يهتز ، وكان يهتز كدمية ويتراجع .

في غرفته المطفأة لم يهدأ ، وثمة محاولة للنوم .. كان ما يزال مستيقظا ، وكان الليل حجرا أسود يزاحم عينيه ، مثقلا بريح جافة دعكت أنفه فأغلق دونها النوافذ ، وارتمى ثانية مبعدا عنه ما استطاع سيل الاصوات النادبة ، تاركا المجال للصوت الجديد ، الملتهب ، الذي سمعه في الصباح وهو يقرع في الجدار ، وعلى السفح وفي أعـــلى الجبل . كان صداه قريبا وعميقا ، وكان داخلا ليلته بعنف .

هل سأراه غدا ؟ ماذا سأقول ؟ أية كلمة يمكنني أن أستحضرهـا الآن ، وأواجهه بها ؟.. أواجه صمته بكلمة .. أية كلمة ؟ أي شيء ؟ هل أنا محقق ؟ كيف .. لا .. والرجل من قال انه فقد هويته ، فقد ذاته ، ألم يقل لي انه سيمشي . كتب عليه أن يمشي في الطريـق الموحشة ، الوعرة ، حيث سيحيا ، وحيث سيكون بامكانه أن يدعـــو طائر الموت ، الى مملكته الصغيرة متى شاء .

هل ثمة اثر لهذا الخيال ؟ نم يا يوسف .. احلم .. ونـــام يوسف ، ولم يحلم . وقام في الصباح ، اغتسل ومضى . وكـــان السائق الفلسطيني يكبر في مخيلته وتنمو خطواته اكثر فاكثر .

هل ثمة اثر لهذا الخيال ؟ تساءل يوسف مرة أخرى ، وأغلـــق الباب خلفه ، وصار في الشارع رجلا آخر . وكانت الشمس تقعـد في الفراغ غريبة اللون ، غريبة الضوء ، وثمة ظل بارد ، مستطيـــل يظلل سيارة .. هي سيارته بزجاجها ، وألوانها ، ولا يمكن ان تكون الا هي . يبدو انها رقدت في الظل ساعة ، أو ساعتين ، ولا اثـــر .. أين سائقها اذن ؟ واتضح فيما بعد انها ليست له . أجل . لم تكن ملكه . لقد أرجعها ، وراح .

أين هو الآن ؟ المهم أن أراه ، أن أقول شيئا ولا شيء غير هذا . غاب الوجه ولم تمض غير أربع وعشرين ساعة . هل غاب حقا ؟ فهـم يوسف كل شيء . أدركه في لحظات كما أدرك من قبل سماء الحـلم . حلم السائق الفلسطيني .. فهم ماذا ؟ لقد فهم الرجل في اللحظـة الاخيرة ، اللحظة التي بدأ فيها يمارس فعلا آخر ، فعلا غير السياقة.. هذا مفهوم .. لقد بدأ يمارس لعبته الفذة مع الموت .

هل يسأل ؟ يسأل عن ماذا ؟ ثمة ماء في الريح . وثمة رجـال . كان من الممكن أن يكتئب ، ومن الممكن أن يقول كلاما . ولكنه لم يفعـل هذا ، ولا ذاك . بل خطا خطوتين ، مخلفا وراءه اثرا فارغا ظل يجثو عند صاحبه ، ورأى الشمس خلال السحب .. رآها ذات لون غامض ، وهادىء . وفي هذه الاثناء أحس انه يبتل بمياه فرح أتت اليه فجأة فيما هو يتجه بخطى متزنة نحو معسكر للتدريب .

النجف ـ العراق — موسى كريدي